قضايا التشبيه في (كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر) لأبي هلال العسكري

أ.د فاضل عبود التميمي
جامعة ديالى: العراق

الملخّص:

تريد هذه (الدراسة) أن تنظر في قضايا التشبيه التي أثارها أبو هلال العسكري (395هـ) في كتابه الموسوم بـ(كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر)،وهدفها الدخول في صلب الخطاب الجمالي للعسكري معتمدة منهجا وصفيّا يتكئ على رؤية تحليليّة تسعى إلى مقاربة النصوص، والإشارة إلى فاعليّتها في السياق البلاغي و النقدي عند العرب.

اعتمدت (الدراسة) في رؤيتها، وطرائق اتّصالها بكتاب العسكري عددًا من المصادر لعلّ من أهمّها: النُكَتُ في أعجاز القرآن للرمّاني(386هـ)، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني(471هـ)، والطراز...للعلوي(749هـ)، فضلا عن بعض المراجع التي لا غنى للبحث عنها، وهي جميعا تبسط القول في فنّ بلاغيّ لّما يزل يثير أسئلًة تتعلّق بجمال العربيّة وأدبها، وبلاغتها ، ونقدها، وقد نهضت على وفرة من السؤالات التي تنبثق من قراءة متن(التشبيه) في الكتاب لعلّ من أهمّها: ما ملامح المنهج الذي اتّبعه العسكريّ في دراسة التشبيه ؟، وكيف رآه أحقيقة كان أم مجازا؟، ولماذا فَصَلَ العسكريّ التشبيه الصحيح عن التشبيه القبيح ، ولم يدرسْهما في فصل واحد؟ ، وَلِمَ أخرج مصطلح (التشبيه) من باب (البديع) الأولى به لكونه مصطلحًا بلاغيًّا لا يختلف من الناحية الشكليّة ،والفنيّة عن مصطلحات البديع الأخرى التي كانت عند العسكري ومن عاصره من البلاغة بعامّة ؟.

بهذه السؤالات وبغيرها تريد الدراسة أن تحاور العسكريّ، ومن جاء من بعده معقّبا ،أو مضيفا ، أو متسائلا ، وهدفها خدمة العربيّة التي نزل القرآن الكريم بها ، فكانت لغة الأدب ،والعلم ، والحياة .

Resume

The main concern of the research is to shed lights on the simile issues which Abu Hilal raised (395 A.H) in his book kitab Al-Sina'atain: Alkitaba walshi'ar.

Its aim is to touch the inner most of his aesthetic speech depending on a descriptive analytical method approximating the texts indicating its efficiency on the context of the Arab rhetoric and criticism .

As far as the Al'askiri's book is concerned, the depends on a number of important sources namely: Alkadaia fee A'ajaz Al-Quran (386 A.H) and Aztar Al-Balaga by Abdlkahir Al-Jurjani (471 A.H), and AlTraz by Alalawi (749 A.H) in addition to another important sources necessary to achieve the aim of the research. All these sources simplify the speech in a rhetorical art still raising questions excellency of the Arabic literature, rhetoric and criticism. The research answers a number of questions emerged from reading the content of simile in the book of which are: what are the features of the method Ala'skari followed in his study of simile .?

How does he view it: reality of figuration? Why does he separate the true simile from the false simile? And why doesn't he study them in one chapter? Why does he exclude the term of simile from the entry of Albade'a for it is a rhetorical term which doesn't differ in its from and art from the other terms of Albade'a which was noticed in Ala'skari and rhetoric in general. Through these questions, the research discusses Alaskari and those who followed him immtators or creators. Finally the research serves the Arabic language, the language of Holy Qura'an, the language of literature, science and life.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1340

المدخل إلى قراءة التشبيه في (كتاب الصناعتين..):

يُعَدُّ:(كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر) [1]الذي ألّفه أبو هلال العسكري:((أوّل محاولة لقراءة أعمال البلاغيين العرب الرواد قراءة شاملة تستهدف الخروج بصيغة عامّة تجمع المتفرّق)) [2]، وفي ذهن (الدراسة) أنّ أبا هلال «واحد من أولئك الذين وضعوا اللبنات الأولى في هذا الصرح العتيد، وكتاب(الصناعتين) من أعظم المؤلفات النقديّة العلميّة التي عالجت الأدب» [3] بدءا من عنوانه الصريح الذي أتاح فرصة التقاط فكرة الوعي بالجنس الأدبي ،فقد تضمن عنوان الكتاب إحالة صريحة على صناعتين، والصناعة:«الفن الذي يتميز به الشاعر أو الكاتب» [4]، وهي في عنوان الكتاب تقترن بالعمل الذهني الذي يفضي إلى مصطلحي: (الكتابة، والشعر)، والكتابة تنطوي على محمول تجنيسي يعني: (النثر)، أما الشعر فهو ديوان العرب عند العسكري[5]،المقابل الأجناسي لمصطلح (النثر)، فالمصطلحان يتقاسمان ثريّا الكتاب بوصفهما جنسي الصناعتين اللتين أراد العسكري الكتابة فيهما، وتحديد أبرز ما فيهما من إشكالات نوعيّة[6].

والتشبيه عند العرب قديم قدم البلاغة عندهم التي عَرَفَتْهُ قبل ترجمة البلاغة اليونانيّة، وَعَرَفَتْ أنّه الأساس في تقدير جمال العربيّة، يدلّ على ذلك أنّ :(الجاحظ 255هـ) في كتابه:(البيان والتبيين)، و(المبرد285هـ) في كتابه:(الكامل) كتبا فصولا برمتها في التشبيه الرائع العجيب الذي وقفت عليه العرب، فالتشبيه قديم في الأداء الأدبي ،وهو قديم أيضا في تقدير الأدباء الذين يعرفونه[7]، وهو يرتبط عند العرب ارتباطًا بنائيًّا بالخيال، فالصورة التشبيهيّة كانت ولّما تزل مظهرًا من مظاهر الشاعريّة التي تُولد في الخيال وبسببه، والتشبيه كما قال يحيى بن حمزة العلوي:«بحرُ البلاغة ،وأبو عُذرتِها ،وسرُّها ،ولُبابُها ، وإنسانُ مقلتِها» [8]،ومن هنا كانت له أهميّة لم يستطع الناقد ،والبلاغي القديمان تجاوزها وهما يتأملان سعة التشبيهات التي هيمنت على مساحة الشعر العربي يومئذ، وهي تعيد إنتاج الصور المستقاة من الواقع والذهن الحي.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1340

رؤية (العسكري) في دراسة التشبيه:

اعتمد (أبو هلال العسكريّ) في دراسة التشبيه الرؤية المنهجيّة الآتية:

1- عرّف التشبيه بقوله: «الوصف بأنّ أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه ناب التشبيه منابه أو لم يَنُب» [9]،وهو يقترب من تعريف الرمّاني (386هـ) الذي قال فيه:«التشبيه هو العقد على أنّ أحّد الشيئين يسدّ مسدّ الآخر في حسّ أو عقل» [10]،ولا عجب في ذلك ؛ فكلاهما عاشا في عصر واحد ، واغترفا من معين قدامة بن جعفر(337هـ) الذي أدخل التشبيه في دائرة الحس العقلي[11].

2- أشار العسكريّ إلى فاعليّة التشبيه بوصفه مصطلحًا بلاغيًّا مؤثّرًا في الخطاب الأدبي فالتشبيه عنده «يزيد المعنى وضوحًا ويكسبه تأكيدًا ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه و لم يستغن أحدٌ منهم عنه»[12]، وقراءة الفاعليّة بحسب وصف (أبي هلال) تحيل على إشارتين دقيقتين :

الأولى: وجود التشبيه في أكثر من لغة، فللتشبيه حضور إنسانيّ معمّم في الخطاب الأدبي الإنساني، وهذا ما تدعمه طبيعة اللغات القديمة، والمعاصرة التي تتضمن صيغ التشبيه وخطابه، ولأبي هلال الفضل في الكشف عن طبيعتها.

الأخرى: علاقة التشبيه بالمعنى الأدبي، وحصول التأكيد من جرّائه، واتساع أساليبه الشعريّة والنثريّة ، ولهذا تتردّد صوره في مستويات التعبير التي لها القدرة على التشكيل الجمالي اللافت للنظر.

لقد استدلّ أبو هلال العسكري على أهميّة التشبيه، وفاعليّته بالرجوع إلى تراث القدماء، وأهل الجاهليّة مؤكدا شرفه، وفضله، وموقعه من البلاغة بكلّ لسان، وهذا يعني استعانته بالمنهج الاستدلالي وتوسعه فيه لغرض قراءة التراث العربي، والإنساني لاسيما تراث العرب الشعري، وتراث الهند في (كليلة و دمنة) [13]، وبهذا الاستدلال يكون أبو هلال العسكري قد اعتمد في تأليف كتابه المثاقفة الحضاريّة لاسيما المثاقفة الخاصة بالحضارة الهنديّة التي وصلت إلى العرب عن طريق الترجمة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1340

3- انفتاحه على جنسي الأدب: الشعر و النثر وهو يحاول تقعيد(التشبيه) الذي يجري بحسب قوله:«في جميع الكلام» [14]، وأجناس الكلام عنده:«ثلاثة: الرسائل، والخطب، والشِّعر، وجميعها تحتاج إلى حسن تأليف وجودة تركيب»[15]، أمّا القرآن الكريم فهو خارج هذا التوصيف الأجناسي .

4-الطريقة المتّبعة في التشبيه عند أبي هلال العسكري تتمثل في القياس على التشبيهات المتّبعة عند العرب مثل: تشبيه الجواد بالبحر والمطر، والعالي الرتبة بالنجم وغيرهما من التشبيهات المتداولة[16]، ولعلّه في هذا الشأن وضع أفكاره في سياق المثال المعهود من دون أن يمدّ بصره إلى قابل الأيام ؛ ولهذا كان قد انتقد تشبيهات المحدثين في كلام لاحق؛ لأنها بحسب رأيه خرجت على سلطة الشواهد المعروفة السابقة حين جاءت بتشبيه ما يَرَى العيان بما ينال بالفكر[17].

التشبيه من الحقيقة:

ويريد قارئ الكتاب وهو يتتبّع منهج العسكري في دراسة التشبيه أنْ يَعْرِفَ التشبيه عنده أهو من الحقيقة ، أم من المجاز ؟، يحاول أبو هلال الإجابة وإن في غير فصل التشبيه، ففي فصل (الاستعارة والمجاز) وقف عند بيتي الشاعر مسلم بن الوليد :

فأقسمتُ أنسى الداعياتِ إلى الصِّبا وقدْ فاجأتْها العينُ والسِّتْرُ واقِعُ

فغطّتْ بأيدٍ ثمارَ نُحورِها كأيدي الأسارى أثقلتْها الجوامعُ

رائيا أنّ عبارة :(ثَمارَ نحورِها) عند بعض البلاغيين من التشبيه، وهو يرى أنّ هذا ليس صحيحًا؛ لأنها عندَه من(الاستعارة)التي حدّها العلماء بـــ« نقل العبارة من شيء إلى شيء »[18]، أي من حالة الحقيقة إلى حالة المجاز ،وهذا ما لم يجده في التشبيه الذي عدّه بحسب الكلام السابق من الحقيقة ؛لأنّه غير معني بنقل اللفظ من مجال دلالي إلى مجال دلالي آخر كما هو في الاستعارة التي عدّها من المجاز.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1340

إخراج التشبيه من البديع:

لقد أخرج (أبو هلال) التشبيه من باب (البديع)، وجعله فصلا قائما بذاته من دون أن يعلمنا سبب الإخراج، وكان د. محمد العمري قد تنبه على هذه المسألة حين تساءل: أ يرجع ذلك إلى وفرة التشبيه في أدب ما قبل العصر العباسي بشكل يجعله خارج منظومة البديع؟، أم أنّ الأمر يردّ إلى خصوصيّات أخرى ميّزته في تاريخ النظم العربي؟، يستدرك العمري على سؤاليه فيجيب: لقد عُدّ التشبيه عند القدماء غرضًا من الأغراض إلى جانب المدح، والهجاء ، والوصف عند ثعلب(291هـ) ، وقدامة (337هـ)،وكان ذلك يرتبط بالوظيفة البنائية المتميزة التي يؤديها التشبيه التي جعلته يرقى إلى مستوى يغني فيه عن المحتوى ليكون هو المحتوى نفسه[19] .

فالتشبيه في النقد العربي القديم من مقتضيات الشعر، وكان النقادُ العرب قد ردّدوا مقولة مؤدّاها أنّ الشعر يتألف من ثلاثة أقسام:(مثل سائر، واستعارة غريبة، وتشبيه بليغ نادر)، ولهذا عدّ التشبيه جزءا من بنية الشعر ،وليس فنّا من فنون تشكيله المجلوب من خارج بنيته النصيّة، وهكذا حظيت العبارة السابقة ، أو محتواها بعناية النقاد والبلاغيين في عصور مختلفة حتى ذكرها ابن أبي عون (322هـ)، و الصولي (335هـ)، والحاتمي (388هـ)، وابن وكيع (393هـ)، والمرزوقي (421هـ) ، وابن رشيق القيرواني (456هـ)، وابن سنان الخفاجي (466هـ)، والمظفر العلوي (656هـ)[20]، والمقولة في حقيقة أمرها تكشف عن قوّة التشبيه، وعظمة تأثيره في النص الأدبي لاسيّما الغريب منه الذي يقترن بنوع من التفكير، والتأمل الذي يحتاج في عمليّة إدراكه إلى دقّة نظر، وقوة فكر[21].

نعم لقد كان التشبيه غرضا من أغراض الشعر شأنه شأن الغزل ، والرثاء ، والفخر، وغيرها من الأغراض ، وهذا ما أكّده ثعلب في كتابه: (قواعد الشعر) الذي جعل التشبيه من أغراض الشعر مع المراثي ، والهجاء ،والمدح ،والاعتذار ، والتشبيب[22]، وقدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر) الذي عدّه من نعوت الشعر[23]، فالتشبيه إذن (قديم) قدم الشعر، وهو ما يدعونا لأن نؤيّد د. العمري في رأيه السابق .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1340

وبالرجوع إلى الكتاب يجد الباحث أنّ العسكريّ كان قد عدّد أغراض الشعر الرئيسة عند العرب، و لم يذكر(غرض التشبيه) حين قال «ولما كانت أغراض الشعراء كثيرة ، ومعانيهم متشعّبة جمّة لا يبلغها الإحصاء كان من الوجه أن نذكر ما هو أكثر استعمالا ،وأطول مدارسة له وهو: المديح، والهجاء، والوصف ، والنسيب، و المراثي، والفخر »[24].

ونصّ العسكريّ لم يقطع في مصداقيّة القول، فقد ترك المجال مفتوحا لتأوّله بدليل إشارته الصريحة الى أنّ أغراض الشعر كثيرة، ومعانيها متشعّبة ،وأنّ ما ذكر منها لا يعدو الأكثر استعمالًا ،وهذا يعني أنّ النصّ سكت عن أغراض أخرى لعلّ منها (التشبيه).

بقي أن نشير إلى سبب آخر يتعلق بخطّة تأليف الكتاب التي لم يحكم أبو هلال العسكري توزيع أبوابها، وفصولها بدقة، وهي تتعلّق بمسألة إخراج بعض مصطلحات البديع ،فلو دقّقنا النظر في الخطّة لوجدناها مؤلّفة من (عشرة أبواب) كل باب يفضي إلى عدد من الفصول غير المتساوية العدد ،فالباب الثاني مثلًا يتألف من فصل واحد ،ومثله الرابع ،وهناك أبوابٌ تألّفت من فصلين ،وثلاثة إلا الباب التاسع فقد تالف من خمسة وثلاثين فصلًا ، هذا التوزيع يكشف عن خلل منهجيّ قاد المؤلّف إلى خلل آخر تمثّل في إخراجه السّجْع من باب (البديع)[25]، وبهذا يكون أبو هلال العسكري قد أخرج مصطلحين مهمين من مصطلحات البديع من بابهما الصحيح لسبب لا نعرفه ،وهو ما يجعلنا نتأوّل في تحديده لنشير ضمنا إلى اضطراب نعدّه الآن منهجيّا.

معايير أوجه التشبيه:

اجتهد (العسكريّ) في وضع معايير لوجوه التشبيه التي تجري في كلام العرب، وغيرهم لتجمع طرفي التشبيه في مشترك دلاليّ يُعَدُّ غاية الإجراء، وشكلًا من أشكال جماله وتميّزه، ووجه الشبه عند بعض البلاغيين :«المعنى الذي يشترك فيه الطرفان تحقيقًا أو تخيّلًا»[26]، فهو عمود يجمع المشترك التصويري الذي ينبثق الإجراء التشبيهي لحظة اتقاد الفاعليّة التشبيهيّة فيه، وهو عند العسكري على وجوه أو أقسام هي [27]:

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1340

أ- تشبيه شيئين متّفقين من جهة اللون مثل: تشبيه الليلة بالليلة، والماء بالماء، والغراب بالغراب، والحرّة بالحرّة، العسكريّ من خلال أمثلته السابقة أراد أن يشير إلى خاصيّة التشبيه التي يكون الوجه فيها ناتجا عن مقابلة شيئين بآخرين بينهما اتفاقٌ في اللون على اللون نفسه.

ب- تشبيه شيئين متّفقين يعرف اتفاقهما بدليل مثل: تشبيه الجوهر بالجوهر، والسواد بالسواد، وهو تشبيه أخذه العسكري من الرّماني[28]، يريد فيه تشبيه شيئين بشيئين وناتج التشبيه مدلّ عليه سلفًا.لعلّ العسكريّ في التشبيهين السابقين أراد الكشف عن التشبيهات المتّفقة في شكلها اللوني، وجوهرها الخاص التي تشغل حيّزا مهمًّا من الخطاب التشبيهي .

ت- تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما مثل تشبيه البيان بالسحر ، والمعنى الجامع بينهما:«لطافة التدبّر، ودقّة المسلك)»[29]، فالطرفان عقليان لا يدركان إلا بالعقل ، وهذا النمط من التشبيه أرقى التشبيهات؛ لأنّه معنيّ بالجمع بين المتناقضات، والمتنافرات ، وقد أخذه العسكريّ من الرّماني أيضًا[30].

إنّ (العسكريّ) في معاييره السابقة أراد التأكيد على أهمّيّة القاعدة في تثبيت جماليات الصورة البلاغيّة المؤثّرة ، وحصرها في أنماط معروفة ، فكأنّه بصدد غاية تعليميّة ،هي في الحقيقة تتطابق مع ما جاء من أفكار أودعها في مقدّمة كتاب الصناعتين.

إجراء التشبيه :

قال العسكريُّ وهو يريد أن يبيّن كيفيّة إجراء التشبيه عند العرب في إشارة دقيقة إلى الكيفيّة التي يجري فيها تشكيل التشبيه للإفادة من دلالته النهائيّة: «والتشبيه... في جميع الكلام يجري على وجوه »[31]:

أ- تشبيه الشيء بالشيء صورة نحو قوله تعالى: «والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم »يس :39، والوجه فيه دقّة التصوير الذي وازن بين صورة القمر وصورة العرجون : أصل العذق اليابس، وقد تنبّه العسكريُّ على أنّ الشاعر ابن الرومي كان قد(أخذ) هذا التشبيه من القرآن الكريم وأدخله في شعره حين قال:

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1340

تأتي على القمر السّاري نوائبه حتى يُرى ناحلاً في شخص عرجون

لقد ورد مصطلح (الأخذ) عند العسكري بديلا عن مصطلح (السرقة) ليعطي دليلا على تسامح الناقد في أخذ الصور حين سوّغ تداول المعاني بين المبدعين، وعنده :«ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممّن تقدمهم، والصبّ على قوالب من سبقهم؛ ولكن عليهم – إذا أخذوها – أن يكسوها ألفاظًا من عندهم ويبرزوها في معارض من تأليفهم، ويوردوها في غير حليتها الأولى، ويزيدوها في حسن تأليفها ،وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرضها، فإذا فعلوا ذلك فهم أحقّ بها ممّن سبق إليها، ولولا أنّ القائل يؤدّي ما سمع لما كان في طاقته أن يقول، وإنما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين»[32]، ثمّ قدّم لتسويغ هذا الرأي بكلام للإمام عليّ (عليه السلام) قال فيه:«لولا أنّ الكلام يعاد لنفد»[33]، في إشارة إلى أهميّة أخذ المعنى الواحد واكسائه من وحي لغة الآخذ وتجربته الأدبيّة من حيث إنّ الألفاظ متناهية.

ب- تشبيه الشيء بالشيء لونًا وحسنًا مثل قوله تعالى :«كأنهن بيضٌ مكنون» الصافات:49، ووجه الشبه فيه جمال اللون ، ودقّة مزاياه فقد شبّه القرآن الكريم وجوه النساء بالإحالة على جمال اقترحته الذائقة العربيّة التي «تشبّه النساء ببيض النعام تريد نقاءه ونعمة لونه»[34]، في إحالة على لون الجمال ونسق بهائه.

ت- تشبيه الشيء بالشيء لونا وسبوغا مثل قول امرئ القيس :

ومشدودة السّكّ موضونة تضاءل في الطيّ كالمبرد

يفيض على المرء أردانها كفيض الأتيّ على الجدجد

فقد شبه الدرع بالأتي: أي بالسيل في بياضه وسبوغه لأنّ الدرع يعمّ الجسد كما يعمّ الأتي الجدجد أي: وجه الأرض إذا تفجر، والتشبيه هنا انحاز إلى اللون كاملًا و الصورة أيضًا.

ث- تشبيه الشيء بالشيء لونًا وصورةً نحو قول النابغة:

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1340

تَجْلُو بقادِمَتَي حَمَامَةِ أيْكَةٍ بَرَدًا أُسِفَّ لِثَاتُه بالإثْمِدِ

كالأُقحوانِ غَداةَ غبَّ سَمائِه جَفَّتْ أعاليهِ وأسفَلَه نَدِي

الوجه فيه يتمثل في إبراز الصورة في لونين مختلفين فقد شبّه شفتيها واللّمى الّذي فيهما بقادمتي الحمامة أي بلونيهما: الأبيض والأسود؛ لأنّه أشدّ سوادًا من الخوافي، وأظهر للصورة من غيرها.

ج – تشبيه الشيء بالشيء حركة: ومثاله بيت عنترة:

غَرِدًا يَحُكُّ ذِراعَه بذِراعِه قَدْحَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأجْذَمِ

فالشاعر شبّه حكّ الذباب لإحدى يديه بالأخرى بَقَدْحِ رجلٍ ناقصِ اليدِ النارَ من الزندين في إشارة دقيقة إلى طيب نكهة هذه المرأة وتشبيهها بطيب نسيم الروضة ،والغرض المبالغة في الوصف والتدقيق في كشف الجمال.

واضح أنّ (العسكري) في الأوجه السابقة أراد تأكيد مسألة دقّة إجراء الشبه وانحصاره في مسائل معيّنة، وأثره في إنتاج الصورة الشعريّة، ويبدو أنّ هذا التفصيل قد أخذه فيما بعد أبن ناقيا البغدادي (485هـ) حين قال: «إنّ الشيء يشبه بالشيء تارة في صورته وشكله، وتارة في حركته وفعله وتارة في لونه ونجره وتارة في سوسه»[35]، والأخذ دليل على أهميّة النصّ وانفتاح دلالته البلاغيّة على إجراءات التشكيل التشبيهي.

أجود التشبيه وأبلغه:

وعند العسكري أنّ أجود التشبيه و أبلغه يقع على أربعة أوجه[36]:

الأول: إخراج ما لا تقع عليه الحاسّة الى ما تقع عليه ومثاله قوله تعالى:«والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء»النور: 29.

الثاني: إخراج ما لم تجر به العادة الى ما جرت به العادة مثاله قوله تعالى:« وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة» الأعراف:171.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1340

الثالث: إخراج ما لا يعرف بالبديهة الى ما يعرف بها مثاله قوله تعالى: «وجنة عرضها السموات والأرض» آل عمران:133 .

الرابع: إخراج ما لا قوّة له في الصفة إلى ماله قوّة فيها مثل قوله تعالى: «وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام» الرحمن:24.

الأوجه الأربعة السابقة كان العسكريّ والرماني قد اشتركا في الوقوف عندها [37]، وإنْ لم يعلّق أبو هلال على سياقاتها ، ولو دقّقنا النظر فيها لاكتشفنا أنّها تؤدي جميعًا إلى وضوح المعنى ،وزيادته ، وتقريب صورته، وتأكيده فالوجه الأول أخرج ما لا يحسّ (الأعمال) إلى ما يحس (السراب)، ووجه الشبه الذي يجمع بينهما كشف حقيقة السراب مع شدّة الحاجة إلى الماء ، والوجه الثاني شبّه ما لم يعرف بالعادة بما يعرف بها ،ووجه الشبه الانتفاع بالصورة ،والوجه الثالث شبّه ما لا يعرف بالبديهة (عرض الجنة) بما يعلم بها (عرض السماوات والأرض)، ووجه الشبه عظم الموصوف والتشويق إليه ، والوجه الرابع شبّه ما لا قوّة له في الوصف بما له وصف معلوم، ووجه الشبه قدرته تعالى على تسخير الأجسام العظام فوق الماء[38].

ويبدو للبحث أنّ هذه الوجوه التي تستقصي جماليّات التشبيه في النص القرآني الكريم قد أسهمت في تشكيل الذائقة الجماليّة عند غير واحد من النقاد: البلاغيين فقد تلقفها فيما بعد كلٌ من: ابن أبي الأصبع المصري (654هـ)، والزركشي (794هـ)، والسيوطي (911هـ)[39]، نظرًا إلى أهميّتها في التحليل البلاغي الخاص بالنصوص القرآنيّة والأدبيّة.

التشبيه البليغ والغريب :

والتشبيه البليغ من أجَلّ التشبيهات عند العرب، وعلامته غيابُ وجه الشبه، واندماج المشبه بالمشبه به، لتحضر صورة بلاغيّة قائمة على الايجاز المبني على حذف أداة التشبيه، وقد مثّل له ببيت امرئ القيس:

لهُ أيطلا ظبيٍ وساقا نعامةٍ وإرخاءُ سرحانٍ وتقريبُ تَنفُلِ

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1340

وعنده أنّ هذا البيت «إذا لم يحمل على التشبيه فسد الكلام ؛لأنّ الفرس لا يكون له أيطلا ظبي ولا ساقا نعامة ولا غيره مما ذكر وإنما المعنى له أيطلان كأيطلي ظبي وساقان كساقي نعامة وهذا من بديع التشبيه »[40] ،بمعنى أنّ التشبيه بسبب غرابته لا يمكن إلا أن يحمل على التأويل، وخلافه فإنّ البيت يقدّم صورة مبنيّة على السخرية فحسب، وحمل التشبيه على التأويل بسبب خفائه الذي يمنح المتلقي فرصة الكشف عن دقة الصورة الرابطة بين المشبّهين كشفًا بلاغيًّا يحسب للعسكري يحيل على قدرته في إدراك جمال النص الأدبي وتلقيه ،ولهذا كان (العسكريُّ) قد جعل البيت السابق من بديع التشبيه ؛لأنّ الشاعر فيه «شبه أربعة أشياء بأربعة أشياء في بيت واحد»[41] محيلًا على جملة تفصيلات تتلاحق مع بعضها لتشكّل صورة بصريّة تبرز للعيان قدرة الشاعر في تشكيل المرئي شعرا.

وعند العسكري أنّ غرائب التشبيهات تلك التي يلجأ فيها الشاعر إلى تشبيه شيئين أو أكثر بشيئين أو أكثر يجيء تشبيهها «في غاية الجودة »[42] ،ومثالها قول امرئ القيس:

كأن قلوبَ الطيرِ رَطبًا ويابسًا لدى وكرها العنّابُ والحشفُ البالي

فالشاعر«شبه شيئين بشيئين: الرطب بالعنّاب، واليابس بالحشف فجاء في غاية الجودة»[43]، فكأنّ (الناقد) تنبّه على أثر المقابلة في صياغة التشبيه الغريب ،والبديع في آن واحد ،وقد مثّل له بشواهد كثيرة فيها نزوع نحو تعدّد طرفي التشبيه.

تشبيه المحسوس بالمعقول:

ومن منهجيّة أبي هلال العسكري في دراسة التشبيه أنّه قدّم تشبيهات المحدثين على تشبيهات القدماء لكنّ التقديم ما كان إلا لغرض الإشارة إلى سوء تشبيهاتهم التي جاءت بما يرى العيان بما ينال بالفكر، وهي عنده رديئة[44]، فهو حين دقّق النظر في قول الشاعر:

وندمانٍ سقيتُ الراحَ صرفًا وأفقُ الليلِ مرتفعُ السجوفِ
صَفَت وصفت زجاجتها عليها كمعنى دقّ في ذهن لطيف

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1340

توقّف عند قول الشاعر الذي شبّه ما تقع عليه الحاسة: (الخمرة) بما لا تقع عليه:(المعنى) الذي لا يدرك بالحواس رائيًا أنّه تشبيه سيّء، بمعنى أنّه منع تشبيه المحسوس بالمعقول، لأنه يعتقد أن «الطريقة المسلوكة في التشبيه ،والنهج القاصد في التمثيل عند القدماء والمحدثين فكتشبيه الجواد بالبحر والمطر ،والشجاع بالأسد ،والحسن بالشمس والقمر، والسهم الماضي بالسيف ، والعالي الرتبة بالنجم ،والحليم الرزين بالجبل»[45]، أي تشبيه المعقولات بالمحسوسات ،ويبدو للبحث أنّ هذا المنع كان مهادًا فكريًّا للرازي(606هـ)الذي منع بدوره تشبيه المحسوس بالمعقول بحجّة أنّ العقل قائم على الحس و«العلوم العقليّة مستفادة من الحواس، ومنتهية إليها»[46]، وهو منع ساذج تجاوزه بعض البلاغيين قبل الرازي ، و لم يلتفتوا إليه لاسيّما عبد القاهر الجرجاني (471هـ) الذي قبل تشبيه (النجوم) بـ(السُنَنِ) بوصفه نمطًا من التأويل والتخيّل يخرج عن الظاهر«ويبعد عنه بعدًا شديدًا»[47]، وابن الأثير(637هـ) فيما بعد الرازي الذي عدّه من ألطف التشبيهات؛ «لأنّه نَقْلُ صورة إلى غير صورة»[48]، فضلا عن الصَّفَديّ (764هـ) الذي وقف عنده وقفة متأملة فرأى:«أنّ هذا النوع من أعلى طبقات التشبيه ،ولا يقدر على (تخيّله) إلا فحول الشعراء، ومن كانت (مخيّلته) صحيحة، وذوقه لطيفاً ،ولهذا كان قليلاً إلى الغاية، وإذا ورد منه شيء تلقّته النفس بقبول ،وكان لحلاوته زاوية في الفؤاد ، و لم يتعذر على ذي اللب بيان المراد من تخيّله، وهو أوقع في النفس اللطيفة من تشبيه المحسوس بالمحسوس ومن بقيّة أقسام التشبيه»[49].

لكنّ العسكري أشار بحياديّة نقديّة إلى استحسان الناس لهذا النمط من التشبيه حين أكّد أنّ :«بعض الناس يستحسنه لما فيه من اللطافة والدقّة »[50] فكأنه أقرّ باختلاف الأذواق في عصره ، واعترافه بمحنة (الناقد) إزاء إشكاليّة الاختلاف نفسها ،لا سيّما حين تقدّم نمطًا من الخطاب مغايرًا للسائد ، ومعاكسًا للمألوف ليحظى بعناية المتلقين.

قبح التشبيه:

وكان أبو هلال قد فَصَلَ التشبيه الصحيح عن التشبيه القبيح جاعلًا التشبيه الصحيح في الفصل الأول من الباب السابع ،والتشبيه القبيح في الفصل الثاني من الباب نفسه، وهو فصل

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1340

متعمّد لم يلجأ إليه ناقد سابق له، أو لاحق لعلّ من أسبابه إيمان العسكري بأنّ القبح قيمة تتضادد والجمال، فهي ترتبط بإحساسات تسهم بانقباض النفس إزاء مجموعة من الصور، أو المشاهدات التي لا تتواءم وتجربة التلقي الخاصّ عند الإنسان ، فالتشبيه عند أبي هلال العسكري يقبح إذا أخرج الصورة من الظاهر إلى الخفاء، ومن المكشوف إلى المستور، ومن الصورة الكبيرة إلى الصورة الصغيرة[51]؛ وذلك لأنّ الأجزاء فيه تعمد إلى تغييب دلالة الصورة فتنتفي عندها فاعليّة التشبيه المتمثّلة في وضوح المعنى وتأكيده؛ ولهذا يصبح التشبيه – والحالة هذه – ضربًا من الإيهام مثّل له بقول الشاعر ساعدة ابن جؤية :

كساها مرطيب الريش فاعتدلتْ لها قداحٌ كأعناق الظباء الفوارق

إذ«شبّه السهام بأعناق الظباء وليس بينهما شبه ولو وصفها بالدقّة لكان أولى »[52]، وقبح التشبيه قضيّة درسها أبو هلال العسكري على وفق عنوانات مختلفة هي: (معيب التشبيه) ،و(خطأ التشبيه) ،و(بعيد التشبيه) ،و(التشبيه المتنافر) ،و(رديء التشبيه)[53] ،وهي جميعًا عنده تقوم على إنتاج تشبيهات تتضادد تمامًا وفاعليّة التشبيه المبنيّة على المبالغة التي تفضي إلى التخييل عند المتلقي.

لقد كان العسكريّ في رؤيته السابقة تقليديا؛ لأنّه ربط نتاج التشبيه بالتلقي المباشر وكأنّه مساوٍ للنظر الاعتياديّ ذي التجربة الآنيّة على أنّ التشبيه حين يخفي بعض التفاصيل في باطنه دون أن يعلنها يمتاز بقدرته على إثارة التأويل الذي يفتح تعدديّة في الرؤى تقوم على تلقي بعد العلاقة بين المشبه والمشبه به ، ولطف الجامع بينهما الذي يسهم في إنتاج صور مبتكرة تتعدّد فيها مناحي الاستجابة الذوقيّة حين ترتبط بنمط من الغموض، فهو تشبيه يمتاز بإيحائيّة الصورة وبعد تشكيلها، وقد تنبّه عبد القاهر الجرجاني إلى جماله فعدّه من التشبيهات التي لا تراها «إلا في الآداب والحكم المأثورة عن الفضلاء ، وذوي العقول الكاملة»[54]، وهذا يعني أنْ لا قبح في التشبيه؛ لأنّ التشبيه بنية لغويّة مكتنزة الدلالة قائمة على توخي الجمال ليس غير، والجمع بين الجمال والقبح عند العسكري يعني الخلط بين المستويات الإيجابيّة ،والسلبيّة وهذا ما لا يريده حتى أنّه جعل لكليهما فصلًا بعينه.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1340

الخاتمة:

1- كان العسكريّ قد عرّف التشبيه، وأشار إلى فاعليّته بوصفه مصطلحًا بلاغيًّا مؤثرًا في الخطاب الأدبي، فهو يزيد المعنى وضوحًا، ويكسبه تأكيدًا ولهذا اتّفق جميع المتكلمين من العرب والعجم على أهمّيته، و لم يستغن أحدٌ منهم عنه، فللتشبيه حضورٌ إنسانيٌّ عميمٌ، و الطريقة المتّبعة في التشبيه عند أبي هلال العسكري تتمثل في القياس على التشبيهات المتبعة عند العرب ، أو الجارية على سَنَنِهم.

2- وكان العسكريّ قد رأى أنّ التشبيه من الحقيقة وليس من المجاز؛ لأنّه بحسب رأيه غير قادر على نقل السياق نقلة دلاليّة مجازيّة مغايرة للمألوف.

3- وكان أبو هلال قد أخرج التشبيه من باب (البديع)، ربّما لأنّ التشبيه عند القدماء غرضٌ من الأغراض إلى جانب المدح والهجاء والوصف كما قال ثعلب، وقدامة وكان ذلك يرتبط بالوظيفة البنائية المتميزة التي يؤديها التي جعلته يرقى إلى مستوى يغني فيه عن المحتوى ليكون هو المحتوى نفسه.

4- وكان العسكريّ قد تحدّث عن معايير أوجه التشبيه فوجدها أربعة: اثنان منها وردا عن الرماني، واثنان من بنات أفكاره، وقد أتاح لقارئه أن يطّلع على شيء مهمّ عن وجوه التشبيه التي من خلالها أراد تأكيد مسألة دقّة الشكل ولونه في وجه الشبه، ودورهما في إنتاج الصورة الشعرية.

5- وكان العسكري قد تحدّث عن إجراء التشبيه عند العرب، وأراد تأكيد مسألة دقّة إجراء الشبه وانحصاره في مسائل معيّنة، وأثره في إنتاج الصورة الشعريّة.

6- إنّ أجود التشبيه وأبلغه عند العسكري ذلك الذي يستقصي جماليّات النص، وقد أسهم في تشكيل الذائقة الجماليّة عند غير واحد من النقاد: البلاغيين العرب.

7- منع العسكريّ تشبيه المحسوسات بالمعقولات، ويبدو للبحث أنّ هذا المنع كان مهادًا فكريًّا للـــرازي الذي منـــع بدوره التشبيـــه نفسه بحجة أنّ العقل قائم على الحس، لكنّ

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1340

العسكري أشار بحياديّة نقديّة إلى استحسان الناس لهذا النمط من التشبيه فكأنّه أقرّ باختلاف الأذواق في عصره، واعترافه بمحنة (الناقد) إزاء إشكاليّة الاختلاف نفسها، لا سيّما حين تقدّم نمطًا من الخطاب مغايرًا للسائد، ومعاكسًا للمألوف، ليحظى بعناية المتلقين.

8- تحدّث العسكريّ عن قبح التشبيه، فكأنّه رأى أنّ القبح قيمة تضادد الجمال، والتشبيه عند أبي هلال العسكري يقبح إذا أخرج الصورة من الظاهر إلى الخفاء، ومن المكشوف إلى المستور، ومن الصورة الكبيرة إلى الصورة الصغيرة.

9- إنّ قضايا التشبه عند العسكري وإنْ كانت معلومة المرجع إلا أنّ قسمًا منها يحال على اجتهاده الخاصّ وتمكّنه من قراءة خطاب التشبيه قراءة خاصّة تنم عن معرفة واعية تحسب للعسكري الذي لم يكن جامع نصوص فحسب.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1340

الهوامـــش

1) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر: أبو هلال العسكري تحقيق علي محمد البجاوي ،ومحمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر العربي ط 2 :1971 .

2) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها: د. محمد العمري : أفريقيا الشرق : 1999:المغرب لبنان : 289.

3) أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغيّة والنقديّة: د. بدوي طبانة: دار الثقافة: بيروت :ط 3: 1981: 13.

4) معجم النقد العربي القديم: د. أحمد مطلوب: دار الشؤون الثقافية العامة بغداد 1989:90:2.

5) ينظر : كتاب الصناعتين:144.

6) للمزيد ينظر: جذور نظريّة الأجناس الأدبيّة في النقد العربي القديم: د. فاضل عبود التميمي: دار الفكر للنشر والاشهار: تونس : 2014: 82.

7) ينظر : بلاغة أرسطو بين العرب واليونان (دراسة تحليليّة نقديّة تقارنيّة : إبراهيم سلامة: مكتبة الانجلو المصرية : القاهرة : ط 2 :1950: 140.

8) كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز: يحي بن حمزة العلوي اليماني: مراجعة وضبط وتدقيق : محمد عبد السلام شاهين :دار الكتب العلمية بيروت : 155.

9) كتاب الصناعتين...: 245.

10) ينظر: النُكت في اعجاز القرآن : ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : الرماني(386هـ) والخطابي(388هـ) و عبد القاهر الجرجاني (471هـ): تحقيق : محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام: دار المعارف بمصر: 74.

11) ينظر: البلاغة والتطبيق : د. أحمد مطلوب ود. كامل حسن البصير: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي : ط 2: 1990: 263.

12) كتاب الصناعتين :249.

13) ينظر: نفسه :249 ،250 ،251. و ينظر: كليلة ودمنة: بيدبا: ترجمة عبد الله بن المقفع : دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع : د. ت :78 .

14) كتاب الصناعتين :251.

15) نفسه: 167.

16) ينظر: نفسه: 249، و أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغيّة والنقديّة: د. بدوي طبانة : 169.

17) ينظر: كتاب الصناعتين: 248.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1340

18) نفسه:298- 299..

19) ينظر: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها: د. محمد العمري : أفريقيا الشرق1999: 294.

20) ينظر: كتاب التشبيهات: 1 ،2، أخبار أبي تمّام :17 ،18 ، حلية المحاضرة:1:130، والمنصف...:88 ، وشرح ديوان الحماسة :10، و العمدة :1:122، ونضرة الإغريض ...:11،10، وسر الفصاحة :248.

21) ينظر : كتاب الطراز...:170.

22) ينظر: قواعد الشعر: ثعلب: حققه وقدّم له وعلّق عليه: د. رمضان عبد التواب: مكتبة الخانجي في القاهرة : ط2 : 1995 : 35.

23) ينظر : نقد الشعر: تحقيق كمال مصطفى: الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة :ط3 :108.

24) كتاب الصناعتين ..:137.

25) ينظر: نفسه: 266، و البلاغة العربية أصولها وامتداداتها:294.

26) الايضاح في علوم البلاغة : القزويني(739هـ): تحقيق لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الازهر :طبعة مكتبة المثنى بغداد : 220.

27) ينظر: كتاب الصناعتين :246-253.

28) ينظر: النُكت في إعجاز القرآن : ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن: 74.

29) كتاب الصناعتين...:246.

30) ينظر : النُكت في إعجاز القرآن : 75.

31) كتاب الصناعتين... :251.

32) نفسه: 202.

33) نفسه : 196، 197.

34) الكامل في اللغة والآداب : المبرّد : مكتبة المعارف بيروت : دون طبعة : ج2: 54.

35) الجمان في تشبيهات القرآن: تحقيق د. احمد مطلوب و د. خديجة الحديثي : بغداد : 1968 :43.

36) كتاب الصناعتين :246.

37) ينظر: النُكت في اعجاز القرآن : ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: 75.

38) وينظر: أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغيّة والنقديّة: د. بدوي طبانة : 178- 179

39) ينظر: تحرير التحبير:159 ،161، وبديع القرآن:58، والبرهان في علوم القرآن: 3: 422 ،ومعترك الأقران:1 :272.

40) كتاب الصناعتين :255.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1340

41) نفسه .

42) نفسه :256.

43) نفسه :256.

44) ينظر : نفسه:248.

45) نفسه: 249.

46) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: الرازي : مطبعة الآداب والمؤيد : القاهرة 1317هـ: 59.

47) ينظر: أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني: قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر: الناشر مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بجدة:ط1: 1991: 226.

48) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: أبن الأثير: قدمه وعلق عليه: د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة : ق2: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع :104.

49) الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه: حققه وعلق عليه :هلال ناجي ،و وليد بن احمد الحسين: اصدارات الحكمة: لندن: 1999:ط1 :76.

50) كتاب الصناعتين ...: 248.

51) ينظر : كتاب الصناعتين: 263.

52) نفسه.

53) نفسه :264-265

54) أسرار البلاغة : 94.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1340